الشخصيات الروائية

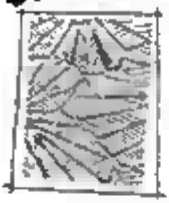

بقلم : محمد عبد الحليم عبد الله

الشخصية القصصية بالنسبة للروائي مستمدة من اعمق ذكرياته واصدق تجاربه ويتم تكوينها في جو نفسي متعادل - لا يشوبه الانفعال الحاد الذي يكون نهاية الحرارة القاتلة بالنسبة للاحياء ولا الفتور الذي يتسامى مع طبيعة نفس الفنان - فالشخصية القصصية اذن بالنسبة للكاتب شيء يختصه - في جو نفسي معين ... صالح لبعث الحياة ... الحياة الجديدة القديمة المطابقة المخالفة في وقت واحد - من الدنيا التي يعيش فيها فحياة الشخصية القصصية قديمة لان الكاتب اخذ اصلها وهي جديدة ايضا لأنه اضاف على واقعها واقعا وعلى ملامحها ملامح - فهي اذن مطابقة ومخالفة ... اصبحت واقعا اعلى من الواقع - أو واقعا أجمل من الواقع - أو واقعا مختصرا اشبه شيء بالعينة التي تغني عن كل العينات - والنموذج الذي يلغي بقية النماذج - والحركة الخاطفة التي تغني عن المشوار الطويل -

واكبر دليل على أن الشخصية القصصية أعلى قدرا في نظر الانسان الانسان وكذلك الانسان الفنان هو مسارعة الرجل العادي الى اطلاق اسم أي شخصية قصصية مشهورة على رجل آخر في مناسبة من المناسبات -

فعندما يطلق الشاب على زميل له لقب « روميو » أو يطلق احدهم على الآخر لقب « ترتوف » أو « زيا وسكينة » أو غير ذلك - فمعنى هذا أن الكاتب استطاع ان يأخذ النموذج العادي من حياته ثم يختصه ثم « يفرغ » من جديد ويخرج نموذجا قديما جديدا مطابقا مخالفا قادرا - بما جمعه من صفات - على الغاء بقية النماذج التي هي من قبيلته لانه صار عند القصصيين أو قراء القصة في منزلة «التعريف» عند علماء المنطق ... شيئا جامعا مانعا - جمع حقائق قبيلته كلها فهو اذن يمثلها ولا داعي للحشد - « دون كيشوت » نائب الحمقى والمدفعين الذين يعملون بلا طائل - و « روميو » الذي وهب نفسه للحب خالصا مخلصا بريئا مبرأ - و « راسبوتين » ذو الطاهر التقي والتدين الرسمي والفسق الحقيقي الأكيد -

والشخصية القصصية لها علاقات بالروائي ظاهرة ودفينة أما العلاقات الظاهرة فيمكن ادراكها في بعض أعمال الروائيين اذا ما طالعت أو قاربت سيرة أحد الابطال

سيرة المؤلف أو كانا من مزاج نفسي واحد . ولكن هناك علاقات دقيقة بين الروائيين وشخصياتهم لا يمكن أن تكون مثل الحالة السابقة الذكر بل هي أشبه بالابتكار العلمي . مقدره وممارسة ومثابرة . تحمل الروائي يصل الى خلق شخصيات لايمكن ان تمت حياتها الى حياته ولا تعارفها الى تجاربه كانسان يعيش بل الى تجاربه كانسان يدرس . فكما انه ليس من الممكن ان يكون اختراع المطبعة له علاقة بمزاج مخترعه أو سلوكه بل علاقته كلها بالملاحظة والدرس فان كثيرا من الشخصيات الروائية ليست ذات علاقة بميول المؤلف أو سلوكه والا فاين راى شكسبير كل هذه الجوانب وينطبق هذا الى حد أكبر على كتاب قصص المغامرات والقصص البوليسية مثل ديماس وأغاثا كريستي .

فبعض هذه الشخصيات يتحول الاحساس الذي خيالها الى منطق علوم الرياضة فرسمها المؤلف كما يرسم احدى (المعادلات) وتكون الشخصية في هذه الحالة اقرب الى الابتكار العلمي وأبعد عن ميولها للمؤلف من حيث سلوكه وتجربته كانسان عادي أولا وقبل كل شيء .

ويلاحظ ان (الأساطير) أكثر امتدادا على خط التاريخ الأدبي وأطول عمرا بل وأسبق من الشخصيات القصصية التي اشتهرت في العالم . وذلك راجع الى ان الأسطورة بما تحويه من حوادث وشخصيات أقدر على خلب عدد أكبر من القلوب وسحر عدد اعظم من خيال الناس . لقدم الأسطورة وخروجها في تكوينها عن اطار الواقع والمألوف ولاقتناع النفوس مقدما بالغاء كل هذه القوانين الطبيعية ثم لقدرتها أخيرا على تحويل الكبار الى اطفال مع مراعاة الرمز الساطع في كل حلقة من حلقات الأسطورة . فاسطورة (سنديلا) و « بنبورا » و « ست الحسن والجمال » و « بقلة العرش » و « ابزيس وأزوريس » تجعل الناس ـ على مختلف المستويات ـ يسارعون الى ذكر الشخصية الأسطورية . أما الشخصية الروائية فانها تاتي في المرتبة الثانية من الشهرة .

لكن شخصية الاسطورة وشخصية الرواية يمران في طرف متشابه هو أن الرمز والناس يعاونان المؤلف أو يبوبان عنه في تجسيد الشخصية ورفعها الى اعلى ووضعها على قاعدة مرتفعة أشبه بقاعدة تمثال يراه أعظم عدد من الناس . فقد قالوا ان شخصية « عطيل » لم تكن بعد مرور بضعة أعوام من خلقها على صدا القدر من الشهرة . فكما أن قارىء الرواية يضيف كثيرا من خيالاته واحساساته ومعارفه ومعلوماته للرواية في اللحظات التي يقرؤها فيها فكذلك يعمل الناس كمجموع فانهم يعيدون مرة بعد مرة خلق احدى الشخصيات التي يصنعها روائي ما بنجاح (ربما كان عاديا في زمنه) وتظل أيدي الناس تتلقف الشخصية من يد الى يد . وفي كل مرة يضاف شيء جديد الى الشخصية هو مزيد من شعور الناس بها . حتى يمر الوقت الكافي لتصبح الشخصية عالمية ربما في قوة وشهرة شخصيات الأساطير .

وفي الادب العربي القديم اشتهرت شخصيات « لم تكن من خلق خيال مؤلف بل هي شخصيات وجدت . غير أن خيال الناس خدمها وان كانت حقيقية « فاذا

كانت شخصية « مادر » البخيل » و « حاتم » الكريم » و « ابو نواس » الماجن كلها شخصيات حقيقية فان شهرتها — في رأيي — ليس فيما عملته فقط بل فيما عمله الناس منسوبا اليها » فكل نكتة او « مقلب » اريد له الشهرة ينسب الى ابي نواس وكل نادرة بخل او كرم اريد لهما الشهرة نسبا الى مادر وحاتم » وكانما هناك شخصيات نصنعها من خلق الله ونصنعها الآخر من خلق الفنان الذي هو في هذه الحالة « الناس واحساسهم » » الناس الذين نقلوا الاساطير عبر القرون »

وفي روايتنا العربية التي ولدت بعد الثلث الاول من هذا القرن شخصيات يمكن ان تكون مشهورة في حدود الوطن العربي اولا ثم في حدود العالم كله »

غير انني ارى ان ذلك يحتاج الى مراحل »

اولا : المرحلة الزمنية » يعني مرور وقت كاف لتحويل الشخصية في روايه عربية ما الى شخصية تجريدية صرف »

ثانيا : تبدأ اولا مرحلة عامة كان نقول هذا الرجل مثل شخصيات توفيق الحكيم أو تيمور او نجيب محفوظ او السباعي او البدوي او غيرهم »

ثالثا : بعد هذه المرحلة يبدأ الناس في التركيز على شخصية معينة لكاتب او عدة كتاب عرب حتى تشتهر »

رابعا : يأخذ الزمن في المرور والشخصية في الشهرة حتى تصبح تجريدية صرفا بحيث اذا قرأتها بعد شهرتها احسست انها الذين » شخصية مشهورة وأخرى روائية تحمل اسمها لكنها اقل منها فتنة وسحرا وتألقا »